امين الريحاني

يستقبل جبران ويودعه

تمهيد

وقف قس بن ساعدة خطيباً في سوق عكاظ فقال :

لا يرجع الماضي ولا يبقى من الماضين غابر

واليوم ، بعد الف وثلاثمئة سنة ، يجري ذكر قس نجران فيعيد بعض الغابر — الباقي — منهُ ويدحض قوله . ما نظر قس الى غير المادة عند ما نطق بهذا البيت من الشعر . وقد لا يصح حتى في المادة التي تذهب ثم ترجع في اشكال شتى وفيها بعض الاحايين تكرر المتشابهات

ان ما في الماضي من الحقائق الاولية التي تتعلق بالانسان والانسانية ، او بالطبيعة والالوهية ، لا يضمحلُّ ولا يفنى . بل يعود شيء منهُ من حين الى حين فيغني في حياة توابع الزمان وفي آثارهم الادبية والفنية والعلمية

وبكلمة اخرى واجلى ان اعالي الاشياء في التاريخ وفي الآداب والفنون ، كما في الاساطير والاديان ، تظل بارزة من قرن الى قرن ، وبائدة الاطراف في اتصالها بعضها ببعض . فقد يذهب ما كان فيها من نفع او سرور او تعزية لابناء زمانها ، ولا يذهب ما فيها من خيال وشعر لمن يتذوقون الشعر والخيال . ولا يذهب ما فيها من عوامل الحقائق القديمة التي يُستعان بها ، اقتداء او استيحاء ، في كشف حقائق جديدة

مثال ذلك عبادة النساء الفينيقيات للرب تموز وحبهنَّ لهُ حبًّا يخالطهُ السر في شهوة يقدسها الهيكل . وما تموز غير رمز للشباب الساحر ، والقوة الغالبة . بل هو رمز ثالوث الجمال اي الحسن والبيان والقوة — الرمز الخالد في حقيقته الاولية البادي كل جيل في شكل جديد . لا نقدس اليوم ما قدسهُ الهيكل بالامس . ولكننا ، في الازياء والعادات الاجتماعية ، نقدس الشهوات ونموّها بشيء من الحب

ولنا في جنون قيس بن الملوّح مثال آخر . فما جنون قيس غير حبه ليلى ذاك الحب الصافي صفاء ماء الغدير ، الطاهر طهور نار الهيكل ، القاهر المحترقُ بأشواقه العالية ، المالك

على صاحبه الجوارح كلها ، فلا يقبل بتحقيق جزء منهُ دون الاجزاء الاخرى ، بل لا يقبل بتحقيقه اذا ظل جزءاً واحداً او جزءاً من الجزء الواحد خارج دار الشوق والاشتياق

وما مثل سقراط والمسيح ، وما أحاديث افلاطون وبسكال ، وما مزامير داود ولنشيد سليمان ، وما نيران اشعيا ، ودموع إرميا ، وقوافي ابي العلاء ، ورؤيا وليم بلايك ، وما تماثيل رودان ، وصور سيزان ، والحان شوبان ، غير مظاهر شعرية فنية فلسفية الهية لهذا الحب العظيم الخالد — حب الحقيقة الانسانية الملموسة في الحياة الدنيا ، والحقيقة الجامعة المجردة الاولية الالهية ، اي حقيقة الجمالين الزائل والازلي ، المادي والروحي

وهذه الحقيقة تجدُّد في مظهر من مظاهرها كما نشأ نابغة في العالم . ولكن الانسان لا يدرك حقيقة النبوغ في نشأته ناهيك في مولده . وقد تدركها روح العناصر الطبيعية الالهية ، وترسل انباءها مثل « الراديو » في الفضاء — فضاء التاريخ — فتأثر بها غُرَر الابداع في اساطير الاقدمين وفي آثارهم الفنية والشعرية والدينية

ذلك ما حاولت ان اصف في مطلع هذا النشيد . وان ما يبدو اليوم خيالاً قد يكون غداً من الحقائق التي تدرك بعين العقل . ولنا ان نقول ، اذا آمنا بعلم الوراثة ، ان في النبوغ ، كما في الزايا البشرية الاخرى ، شيئاً من ماضيه القومي واشياء من النوابغ الماضين . وبكلمة اوضح ان النبوغ يتغذى بما تقدمه من نبوغ مشابه اما روحاً واما غرضاً ووضعاً

ومن هذا القبيل يصح ان نعكس ما قالهُ قس بن ساعدة . فالماضي يرجع بخيره وشرّه ، ويبقى من الماضين بقية يغربلها الزمان ، فيحفظ خير ما فيها لخير الناس

ذكرى جبران[1]

١ — هو يوم من الايام في لبنان جهل الانسان السر فيه
هي ساعة من الساعات مرّت ، مرت مرور القُبَّرة في سكينة الفجر
هي يقظةٌ عنصرية عند منعطف الوادي ، وقد هجعت فيه القلوب والاحلام
همس الفجر ، فتثائب الليل ، فانقشع السحاب ، فتلألأت الربى . ان روحاً تستيقظ في لبنان

٢ — تحت صخرة شماء ، نثر عليها الطيّق مرجانه ، وأثمر الغار فوقها ثماره السوداء ، وتزاحم عند قدميها البطم والطيّون ، نوّرت الزنبقة الحمرية
وسمع اذ ذاك صوت الزمان يقول : ان بين كل يقظةٍ ويقظة ليلاً طويلاً عقيماً

(١) القصيدة النثرية التي اعدها امين الريحاني لانشادها في الحفلة الكبيرة التي اقيمت ببيروت مساء ٢١ الحالي لاستقبال جثمان جبران خليل جبران في طريقه الى مسقط رأسه بشري

وسمعُ صوت الاجيال : أنَّ إرثي مجموع ما تقدم من إنجابي

وسمعُ صوت الخلود : في الفناء وفي البقاء ، كما في النور وفي الظلام تُقرأ كلماتي ، وتثمر أغراسي . انهُ لنبأ كريم ، ان روحاً تستيقظ في لبنان

٣ — في الوادي المقدس ، تحت ظلال الارز ، هتفت الايام تمجيداً عند مهد النبوة ، وحول مناسك العبّاد ، وقف الزمان خاشعاً محبوراً

وجاءت من الاودية الشذية عرائس الشعر ، يحملن كؤوساً من العاج ، فيها طيب من القلوب الجبارة تطهّرتهُ الدهور وجاءت من المروج الندية عرائس الخيال ، يضفرن اكليلاً من الورد توارت اشواكه ، ومن العليق وقد اختفت بين اوراقه عناقيد المرجان

وسمعت في فيئات الربى اصوات كالهمس اذا لاعبتهُ الرياح ، هي اصوات المرجات ، اصوات الجذل . وسمعت عند السواقي اصواتٌ كالحديد اذا سيَّرتهُ الكهرباء ، هي اصوات الهادمات ، اصوات التمرد

ومن اعالي الجبال ، التي يرقد تحت ثلجها بنفسج رقدة الاطفال ، جاء الرجاء يبشرون ان روحاً تستيقظ في لبنان ، هي روح جبران

٤ — على شاطىء البحر الابيض ، بين مصب النهر وجبيل ، رأيت نسوة ثلاث ينظرن الى المشرق ، —

والشمس ، كالجلنار ، تنبثق من ثلج يكلل الجبل ، —

امرأةٌ في ثوب اسود ، وقد قبَّل الهمّ فمها الباسم ،

وامرأة في جلباب ابيض ، وقد نطق الحنان في عينها الدامعة ،

وامرأة ترفل بالارجوان ، وفي صدرها للشهوات نار تأجج —

ثلاث نسوة يندبن تموز ، ويسألن الفجر قائلات : هل عاد يا ترى ، هل عاد ؟

ومن جبال يهوذا اجابتهن قيثارة داود ، وابهجهن صوت صاحب النشيد

ومن مروج الجليل سمعن صوتاً يهمس باسم الناصري العظيم . ومن وادي الاردن صوتاً يردد اسمي ارميا واشعيا بن آموص ووراء الاردن ، في البادية دون النفود ، شدت الورقاء وغنى الحادي بذكر المجنون وابن ابي ربيعة

ومن معرة النعمان ، من الهدة العلائية ، جاء خاتم الاصوات يقول : « لكل صوتٍ مجالٌ في سامعهِ »

مثلما يسمع « الراديو » الاصوات المنتشرة في الفضاء ، سمع جبران الاصوات الخالدة في تاريخ هذا الشرق الادنى ، وفي آدابه واديانه

سمع ، ووعى ، واذكر ، ثم ودع ، وما هجر

٥ — حمل الارث القديم الى ما وراء البحار

فزاد البعد صدى الاصوات جمالاً ، وزادت الغربة بجلال المآثر والذكريات

ظل يسمع اجراس الكنائس في لبنان ، وظل يطرب لرنات العود ، وغنات القصب

ودامت المخيلة منه تهيم في الاودية ، وترقد في ظلال الارز . واسترَّ يصوغ ، عند السواقي الفضية ، احلاماً من الابنوس والذهب

اجل ، لقد رحل ، وما هجر

حمل الوطن في قلبه ، وقبل ان ينضج النبوغ كان الحمل في الغربة ثقيلاً

بل كان قيداً لنفس طماحة مكدّة

وما كان ليثنيه عن الم ، او يؤاسيه في غمرات الاشواق الجديدة . وكان جبران مع ذلك ثابت القدم في ارض لم تمد تحت قدميه ، ارض حملها بين جنبيه

وكان فوق ذلك وحيداً الاّ في ساعات الاحلام والابداع

٦ — رأيتهُ في باريس ، مدينة النور ، يحيي الليالي على نور سراج ضئيل ورأيت بنات تموز — لسوء الخيال — يطفن حوله في سميرات باريسيات ورفيقات اميركيات ، فيزدنه بهجة وشوقاً والماً ووجداً

البيضاء الجلباب ، منشدة الحقائق ومشعلة الاشواق ، تفتح له ابواب الفن والجمال

والسوداء الثوب ، ربة الاحزان ، تقلب صفحات قلبه وتطويها بأنامل ناعمة باردة

والارجوانية الوشاح تقف بين الاثنتين ، وقد أفرغت الكأس ، وعمدت الى المرآة والقلم الفرمزي

وكانت الروح المستيقظة ترد موارد الفن والجمال وهي محفوفة بالالطاف وحقيقاتهن في المتاحف والملاهي ، وفي البساتين والحانات ، كنَّ للرفيق الرفيقات المتباريات حبًّا واعجاباً

بل كن الشريكات بما تجسَّد من حبور وروعة ، وما تجسم من الم وامى

وكانت روح الرفيق في ورودها الموارد الذوقية والفنية تزداد شوقاً ووجداً

تزداد ظمأ كلما شربت ، تزداد احتراقاً كلما ارتوت . فودعتْ باريس ، وما هجرتها

٧ — حملتِ الارث الفرنسي طي الارث الشرقي الى مدينة حديثة المجد ، لا تكترث لتراث الثقافة والفنون

مدينة في العالم الجديد ، قلبها من حديد ، وعقلها من معادن الذهب والفضة

هناك بين عجيج يروّع ، وضجيج يُصمّ ،
حيث تُذبح الاصوات الوديعة ، وتختنق الاشواق العالية ، في قلب النهار القهار ، المبدع المستبد جبارة العمل . في ظلال لناطحات السحاب تستعيض عن الشمس بالكهرباء ، قريباً من الجادة الساحرة التي تنصب بعصاب العالم المالي فتثيرها وتسكّنها ، —
هناك في مدينة الحديد والذهب ، والاحلام التي يحققها الذهب والحديد
في مدينة الانسان الحامل الساعة والميزان ،
في المدينة التي تعدكل شيء ،وزن وتقيس كل شيء هناك، في نيويورك أقام من لايحسن العد ولا يحترم المقاييس والموازين

٨ — في ردحة قدسها الجهادالاكبر، جهادالروح في سبيل الحق المطلق، والجمال الأتم، قعدت الردهة صومعة للفكر والفن والخيال ، وقد حجبت بحجارتها الشرق والغرب ، وفتحت شباكاً للشمال ، فحمل القطب اليها مع نوره السويّ روحه الخشنة المنشطة [1] هناك في تلك الصومعة الوديعة ، القائمة الحيا ، اللامعة موطن العطف والترحاب ، بين الكتب والاوراق والصور والتحف والتماثيل — بين ركام من صفحات تصادمت فيها الفكر والحكم ، ومن شذرات تناءبت تحتها الاشواق والاشجان

ومن لوحات جالت فيها الريشة جولات كليلة — بين دمى قدسية ، ورسوم رمزية، وشموع على مائدة كتبية — هناك في تلك الصومعة الحافلة بالآثار الذوقية والفنية والادبية ، وبالاطايب الروحية

اقام جبران عشرين سنة . وهناك صارع العناصر التي كانت تتنازع فيه الروح والعقل والفؤاد . وكان سلاحه سيفين من الشرق ومن الغرب . فشحذ الواحد على ما تصلب من قلبه ، وصقل الثاني بذوب العقل والروح

لغة العرب ولغة الانكليز ، جاهد كلتيهما وذللهما لبيانه ولخياله . عشر سنوات من الجهاد ، وعشرٌ من حسن التواب ، عشر سنوات مضطربة ، وعشرٌ مطمئنة مثمرة . فانتصر بالعربية على العقل ، وانتصر على القلب بالانكليزية

٩ — امتاز جبران بخياله العربي من حقائق الحياة ، وسما ببيانه الانكليزي فوق

(١) لا يحسن المصورون التصوير في نور الشمس التي يدخل المكان من الشرق او من الغرب فيختلف سطوعاً وضآلة من ساعة الى ساعة . اما نور الشمال فهو النور السويّ اذ لايختلف في الصباح او في الاصيل وهو المعول عليه

الخيال . وكان في الحالين مبدعاً ، طوراً انشاء ، وتارة فكراً . فسمعتُ كلامه أمسِ تضنُّ بسمعها على الشرق . وردد حكمته من نشأوا ، ومن لنشأن ، حول مهد الحكمة هناك وجلسوا وجلسن بعد ذلك على عرشها

وامسى جبران ذا عرش بينهم ، وذا عجرة بينهن

ورأيت حول العرش الثلاث ، لسوة تموز في لسوة نيويورك ، خيالاً في حقيقة ، وحقيقة في خيال . وسمعتهن يتناشدن الشعر ، وهن يحرقن الند ، ويقلبن صفحات الكتاب الخالد ، كتاب الاشواق المكسرة الاجنحة . ثم رأيتهنَّ حول العش ، وسمعتهنَّ يحدثن الليل ويسألنهُ قائلات : هل يعود ، يا ترى ، هل يعود ؟

تموز وداود واشيا والفارض والمجنون ووليم بليك[1] — هل يعودون يا ترى ، هل يعودون ؟

دعهن يتساءلن ، ودعهم يتساءلون

١٠ — اخي ورفيقي وحبيبي جبران ،

ما احزنني شيء في حياتك وجهادك مثلما تحزنني هذه العودة منك عودتك الاخيرة الى لبنان — وددتُها والله لغمي

فجذا الموت يعدل بيننا ، بين مَنْ تمددت عوداته ، ومن تكورت فيه لوعة الحرمان

ولاعطيتك لو استطعت عيني وقلبي ، لترى الآن ما تراه عنك وفيك

جبران اخي ورفيقي وحبيبي

ان للشهرة يوماً ، وان للحزن يوماً ، والباقي للبنان

لهذا الجيل العزيز الكريم الحنون الذي يضمُّك اليوم ، وغداً يضمني ، اليه

ومهما يكن من رسالة حملتاها الى الشرق والغرب بنصف الزمان

ومهما يكن من ادب بدعناه ونشرناه رأفة بالناس ، بعدل المستقبل

وان نراني غداً في وادي الفريكة يناجي ترابك في الوادي المقدس

ومن ظلال الصنوبر الذي سيظلل ضريحي ، سيحمل النسيم قبلات عطرة صباح مساء ، الى ضريحك في ظلال الارز

الفريكة — امين الريحاني

---

(١) بعض من بحث اليوم جبران بنسبه الروحي ، وقد عادوا فيه وفي ادبه الى العالم الناطق بل عالم الشعر المدون المنثور بين الناس . قيل يهودي وجبران [illegible] غيره من نوابغ المستقبل [المقتطف] وقع خطأ مطبعيٌّ في تدوين اسم جبران في عنوان بعض الصفحات اوجب التنبيه